كنوز الأجداد

- ١١ -

ابن خلكان

شمس الدين احمد الاربلي

(٦٨١)

قاضي القضاة الكملة ، شيخ المؤرخين ، علم المحققين ، المتفنن في العلوم ، البارع في تصنيفه ، العظيم في تفكيره ، المجيد في شعره ونثره ، ينمُّ ما كتب على ذوق عال في الأدب وعلى اطلاعه الواسع في جميع فروعه ، ماهر بالمناسبات والمقارنات ، صاحب اليد الباسطة في النقد وليس ممن يقنعه النقل المجرد ، يجمع بين معرفة نفسية الناس ومعرفة التاريخ ومعرفة الشريعة ومعرفة السياسة ومعرفة الأدب ، والنفوذ أبداً الى الحقائق والعلوم المنوعة التي أعانته على التجويد في تأليفه .

ولد سنة ثمان وستمائة في مدينة اربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين بن زين الدين وكان والده يتولى التدريس فيها . وقيل في نسبه انه ينسب الى البرامكة فهو احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان بن باوَل بن عبد الله بن شاكل ابن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك . قال ابن العديم انه من بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية وقال غيره كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً مفتناً مجموع فضائل معدوم النظير في علوم شتى ، حجة فيما ينقله ، محققاً لما يورده ، متفرداً في علم الأدب والتاريخ وكان ولي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة وأفتى ودرس ودام بها نحو سبع سنين ثم أعيد الى قضاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دمشق وسر الناس بعوده ومدحته الشعراء بعدة قصائد من ذلك ما قاله رشيد الدين الفارقي :

أنت في الشام مثل يوسف في مصـ ـر وعندي ان الكرامَ جناس
ولكل سبع شداد وبعـد السـ ـبع عام فيـه يغاث النـاس

وقال سعد الدين الفارقي :

أذقت الشام سبع سنين جدباً غداة هجرته هجراً جميـلا
فلما زرته من أرض مصر مددت عليه من كفيك نيلا

وكانت مدة مقامه بدمشق عشر سنين كوامل لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً وعاد الى القاهرة فصادف فيها كتباً كان يؤثر الوقوف عليها فطالعها وأخذ منها حاجته . «وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من بقية المذاهب فاستقلوا بالأحكام بعد ما كانوا يكونون من نوابه» وأثرت هذه المأثرة للظاهر بيبرس وكان بينه وبينه صلات ود وشغل . والظاهر هو الذي جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة المعتمدة عند أهل السنة والجماعة قاضياً يقضي بينهم .

ذكر في مقدمة كتابه أن ما دعاه الى جمع تاريخه أنه كان مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم ومواليدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع له منه شيء حمله على الاستزادة وكثرة التتبع فعمد الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن وأخذ من أقوال الأئمة المتقنين له ما لم يجده في كتاب فرتبه على حروف المعجم ولم يذكر أحداً من الصحابة ولا من التابعين الا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم وكذلك الخلفاء فانه لم يذكر أحداً منهم وذكر جماعة من الأفاضل الذين شاهدهم ونقل عنهم أو كانوا في زمنه ولم يرهم ولم يقصر مختصره على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء بل كل من له شهرة بين الناس وقيد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيحه وذكر من محاسن كل شخص ما يليق به من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيملّه والدواعي انما تنبعث لتصفح الكتاب اذا كان مفنناً واسماه « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » مما ثبت بالنقل أو السماع وأثبته البيان .

وطلب في مقدمة الكتاب وخاتمته ممن وقف عليه من أهل الدراسة بهذا الشأن ورأى فيه خللاً فهو المثاب في اصلاحه بعد التثبت فيه . وطلب في آخر كتابه ممن وقف عليه من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعجل بالمؤاخذة فيه فاني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح إلا كتابه . أي أنه بذل الجهد في التدقيق فان ظهر ما فيه خلل بعد ذلك فانه أجاز العالم المطلع عليه أن يصلحه ، وأي أمانة للعلم أعظم من هذه الأمانة .

أعجب علماء المشرقيات بكتاب الوفيات وقالوا انه ليس في لغاتهم من كتب التراجم ما يماثله في التحقيق وما أعجبوا به إلا لأنه نشره لما حقق كل ما فيه وتمثله وهضمه فهو كتاب في التحقيق معجب لا يحتاج مطالعه عند تلاوة ترجمة من الترجمات الى مزيد اذا انتهى من الترجمة شرح ما يخشى أن يعسر فهمه على القارئ من ألفاظ لغوية غامضة وكلمات قد تكون مبهمة على القارئ في الجغرافيا والتاريخ والنسب .

وعندي ان هذا هو الكتاب المحرر وهكذا يجب أن تكون الكتب يتعب المؤلف أعواماً طويلة في تأليفه ليخرجه كسبيكة الذهب فيستريح من يتناوله بعده للاستفادة ، ولو كانت كل كتبنا على هذا المثال في التحقيق لسقط قسم كبير من المؤلفات وبقي السليم المفيد والزبدة الخالصة .

قالوا كان فيه سكون الطائر المعهود في القضاة وعدم التسرع بما يعرض له باديء الرأي لا يبت في فصل القضايا إذا رأى في حسمها ضرراً وكذلك فعل بتأليفه فما أخرجه للملإ إلا بعد مضغه وهضمه وتذوقه وحققه وهي مزية امتاز بها بعض المؤلفين الذين كتب الخلود لمؤلفاتهم . وحسنة أخرى كانت تبدو في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كتابه وهي أنه استخدم كل ما حواه صدره من المعارف وما بلغه من عظيم التجارب في القضاء في تأليف كتابه الممتع فقد يكون المؤرخ عند نفسه انه تام الأدوات بما أحكمه من فنه فيكبو في فنون كانت تلزمه للتحقيق يدرك هذا النقص كبار المحققين .

وعلى استغراق أوقات ابن خلكان في « فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية » وجد وقتاً لمطالعة القدر الممكن من الأمهات يزين بنصوصها كتابه ووجد وقتاً للتدريس في عدة مدارس بدمشق لم تجتمع لغيره ولم يبق معه في آخر الوقت سوى الامينية وبيد ابنه كمال الدين موسى سوى التجيبية . ولعل لاستئثاره بعدة مدارس على ما لم يجتمع لغيره دخلاً في امالة بعض الوجوه عنه ففتح المجال لحساده ان يزنّ بأمور هو منها بريء . ذلك ان مشايخ المدارس أنكروا ولا شك هذا الطمع من قاضي القضاة وربما كان يا كتفائه بمدرسة واحدة أكبر داع الى تجويد التدريس والاتقان في العمل ، وارضاء بعض المدرسين بتوزيع هذه التداريس عليهم خير من ضمها في يد واحدة .

وترجم له ابن الكتبي في فوات الوفيات الذي جعله ذيلاً على كتاب ابن خلكان ترجمة من يفرح بالمساوئ ويغضي عن المحاسن واتهمه بحب المرد ، وأورد له بيتين يقال انه قالهما في ابن صاحب حماة وربما كان يقصد النكتة ، وسكت عن محاسنه ولم يذكر كتاب وفيات الأعيان وأين الأصل من الفرع الوفيات كله تحقيق والفوات جله تلفيق .

وروى الكتبي ان ابن خلكان كان في المدرسة العادلية وبات ليلة يدور حول بركتها ويكرر هذين البيتين الى أن أصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان هما :

أنا والله هالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ونقل له أبياتاً كلها من الغراميات منها :

وسرب ظباء في غدير تخالهم بدوراً بافق الماء تبدو وتغرب
يقول عذولي والغرام مصاحبي امالك عن هذي الصبابة مذهب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

ومن شعره :

يا رب ان العبد يخفي عيبه فاستر بحلمك ما بدا من غيبه
ولقد أتاك وماله من شافع لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ومن شعره :

تمثلتم لي والبلاد بعيدة فخيل لي ان البلاد لكم مغنى
وناجاكم قلبي على البعد والنوى فآنستمو لفظاً وأوحشتمو معنى

ابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي

(٦٦٨)

هو من الخزرج من ولد سعد بن عبادة . ولد بدمشق وقرأ مبادئ الطب على والده ثم اتصل بعلماء اجلاء أخذ عنهم التاريخ والأدب والطب وممن تلقى عنهم الطب مهذب الدين الدخوار الذي انتهت اليه رياسة صناعة الطب في عصره . ولما أقام الدخوار بدمشق شرع في تدريس صناعته فاجتمع اليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه وأقام موفق الدين بدمشق لأجل القراءة عليه ، وكان يشتغل عليه في المعسكر لما كان ابوه والحكيم الدخوار في خدمة السلطان . قرأ على الدخوار كتب جالينوس ولازمه في وقت معالجته للمرضى فتدرب معه وباشر عندئذ أعمال صناعة الطب وكان مع شيخه لمداواة المرضى في البيمارستان النوري الحكيم عمران من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كان يصفانه للمرضى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالدخوار هو الذي تخرج به المؤلف في الطب واقتبس في المعالجة فوائده وفوائد الحكيم عمران . أما شيوخه في الأدب والتاريخ وغيرهما فلم نعرفهم . وكان مبرزاً في الأدب ينثر وينظم اشتهر بنظمه من مدحه صدور صناعته وكان يقول الشعر على البديهة ويجتمع الى الشعراء ومن أصدقائه فتيان الشاغوري أكبر شعراء دمشق في عصره ومن شعره قصيدة يتشوّق فيها الى دمشق ويمدح موفق الدين عبد السلام . قال فيها :

لعل زماناً قد تقضي بجلق ... يعود وتدنو الدار بعد التفرق
وان تسمح الأيام من بعد جورها ... بعدل وانى بالأحبة نلتقي
فكم لي الى أطلالها من تشوف ... وكم لي الى سكانها من تشوق
ترنحني الذكرى اليها تشوقاً ... كما رنحت صرف المدام المعتق
ومن عجب نار اشتياقي بأضلعي ... لها لهب من دمعي المترقرق
لقد طال عهدي بالديار وأهلها ... وكم من صروف البين قلبي قد لقي
ولو كان للمرء اختيار وقدرة ... لقد كان من كل الحوادث يتقي
ولكنها الأقدار تحكم في الورى ... وتقضي بأمر كنهه لم يحقق

ومن قصيدة له في الوزير الصاحب امين الدولة ابي الحسن بن غزال وهو الذي أهدى اليه كتاب الطبقات :

فؤادي في محبتهم أسير ... وأنى سار ركبهم يسير
يحنّ الى العُذَيْبِ وساكنيه ... حنيناً قد تضمنه سعير
ويهوى نسمة هبت سحيرا ... بها من طيب نشرهم عبير
واني قانع بعد التداني ... بطيف من خيالهم يزور
ومعسول اللمى مر التجني ... يجور على المحب ولا يجير
تصدى للصدود ففي فؤادي ... يوافر هجره أبداً هجير
وقد وصلت جفوني فيه سهدي ... فما هذي القطيعة والنفور ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهبط موفق الدين مصر وأكمل صناعته في المستشفى الناصري ثم انتقل الى صرخد في جبل حوران وكان مالكها عز الدين ايبك ، وفي صرخد هلك ودفن . والى صرخد كتب اليه شرف الدين الرحبي يحثه على العودة الى دمشق ويكره اليه البلد الذي نزل به قال :

موفق الدين ماذا السهو منك على ... ما نلت من رتبة في العلم والأدب
أتعبت نفسك بالنزر الحقير لقد ... أرخصتها بعد طول الجد والدأب
أقمت في بلد يزري بساكنه ... لا يرتضيه لبيب من ذوي الفطن
ناءٍ عن الخير ذي جدب فليس به ... سوى صخور وحَرّ منه ملتهب
مضيعاً فيه عمراً ما له عوض ... اذا تصرم وقت منه لم يؤب
أتحسب العمر مردوداً تصرمه ... هيهات أن يرجع الماضي من الحقب
أم تحسب العمر ما ولت لذاذته ... ينال بعد ذهاب العمر بالذهب
اذا تولى شباب المرء في نغص ... فما له في بقايا العمر من ارب
لو كان ما أنت فيه مكسباً لغنى ... لما وفى بذهاب العمر في نصب
فكيف مع قلة الجاري وخسته ... والبعد عن كل ذي فضل وذي أدب
فعد الى جنة الدنيا فقد برزت ... لمجتلي الحسن في أثوابها القشب
ولا تقم في سواها مع حصول غنى ... فالعمر فيما سواها غير محتسب
واقطع زمانك طيباً في محاسنها ... وعد الى اللهو واللذات والطرب

الى آخر القصيدة فجاوبه ابن أبي أصيبعة بقصيدة مدحه بها ومن أبياتها :

وانني بعد ما جد الفراق بنا ... والبعد لم يصف لي عيش ولم يطب
وكيف يلتذ عيشاً من أتاح به ... هذا الزمان الى قوم من الحطب
لم يعرفوا قدر ذي علم لجهلهم ... وليس ذلك في الجهال بالعجب
أتيت من ضاع فضلي في فِناه وهل ... غباوة العجم تدري فطنة العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى آخر ما استدللنا به على انه لم يكن في صرخد على فراش من الورد وان الحاجة أو الشيخوخة دفعته الى الرضا بالاستخدام عند صاحبها الأعجمي في بلد يغلب الجهل على أهله .

***

هذا ما كان من نشأته وتمحضه لصناعة الطب وكان من أمره بالبراعة في التأليف انه ألف كتابه النفيس « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » واسطة عقد تآليفه والدرة الثمينه التي خلد فيها على الأيام ذكره وذلك في سنة ٦٤٣ وهو في سن الكهولة وبقي خمساً وعشرين سنة يمحو ويثبت كما فعل ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ترجم فيه للموافق والمخالف وأنصف جميع من ترجم لهم كأنهم أبناء مذهبه ، وكأنهم كلهم أبناء مذهب واحد وهو مذهب العلم . وأودعه نكتاً وعيوناً في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين ومعرفة طبقاتهم على توالي ازمنتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم وشيئاً من أسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم قال فان كثيراً منهم وان قدمت أزمانهم وتفاوتت أوقاتهم فان لهم علينا من النعم فيما صنعوه ، والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ، ما هو تفضل المعلم على تلميذه ، والمحسن الى من أحسن اليه .

قسم كتابه الى خمسة عشر باباً الباب الأول في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها . الثاني في طبقات الأطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة . الثالث في الأطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقيلبيوس وهم ستة . الرابع في الأطباء اليونانيين الذين أذاع ابقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة . الخامس في الأطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريباً منه . السادس في الأطباء الاسكندرانيين ومن كان في أزمنتهم من الأطباء النصارى وغيرهم . السابع الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام من أطباء العرب وغيرهم وهم عشرة . الثامن في الأطباء السريانيين الذين كانوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في ابتداء ظهور دولة بني العباس وهم أربعة وثلاثون . التاسع الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم وهم سبعة وثلاثون . العاشر الأطباء العراقيون وأطباء الجزيرة وديار بكر وهم اثنان وثمانون طبيباً . الحادي عشر الأطباء الذين ظهروا في العجم وهم ثلاثة وعشرون . الثاني عشر الأطباء الذين كانوا في الهند وهم ستة . الثالث عشر الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها وهم تسعة وثمانون . الرابع عشر الأطباء المشهورون من أطباء مصر وهم سبعة وخمسون . الخامس عشر الأطباء المشهورون من أطباء الشام وهم تسعة وخمسون .

ورتب من ترجم لهم على سني وفياتهم ولا تعد هذه الطبقات كتاباً للطب والأطباء بل كتاب الحكمة والحكماء والمفننين من العلماء يقع القارئ فيه على أشياء في مدنية الاسلام وعيون المسائل الصحية والعلمية وأسماء التراجمة عن اليونانية والسريانية وغيرهما تتراوح فيه بين التعريف بالأطباء والفلاسفة والحكم المستعذبة والأشعار اللطيفة والنثر البديع فهي كتاب أدب ومحاضرة كما هي كتاب حكمة وطب تتنقل بين الاستفادة من هذه وترويح النفس بتلك الى غير ذلك من الفوائد التاريخية والاجتماعية والطبية عدا ما فيه من النكات والفكاهات .

ومن فكاهاته ما رواه عن يوحنا بن ماسويه الطبيب العالم المشهور وكان فكهاً ذا دعابة وظرف قال : شكا اليه رجل جرباً قد أضرّ به فأمره بفصد الأكحل من يده اليمنى فأعلمه انه قد فعل . فأمره بفصد الأكحل أيضاً من يده اليسرى فذكر أنه قد فعل . فأمره بشرب المطبوخ فقال : قد فعلت . وأمره بشرب الاصطمخيقون فأعلمه انه قد فعل . فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعاً وشرب مخيض البقر أسبوعين فأعلمه أنه قد فعل . فقال له : لم يبق شيء مما أمر به المتطببون الا وقد ذكرت أنك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً فاستعمله فاني أرجو ان ينجع علاجك إن شاء الله . فسأله ما هو ؟ فقال : ابتغي زوجيْ قراطيس وقطعها رقاعاً صغاراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واكتب في كل رقعة رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية ، وألق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام ، والنصف الآخر في المسجد الغربي وفرقها في المجالس يوم الجمعة فاني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء اذ لم ينفعك بالعلاج .

توسع المؤلف في حرية القول الى التي لم يصل زمانه الى أوسع منها وحرص على نقل الشعر ولا سيما شعر الأطباء وفيه المستملح وفيه العالي ، ولكثرة غرامه بالحرية نشر طائفة من الشعر الذي نصفه بالأدب المكشوف فأراد أن يجعل كتابه مرجعاً كبيراً وموردا فائضاً في كل أطروفة وأطروبة ولذلك رأيناه لما أهدى نسخاً لبعض من يغلب عليهم الوقار حذف هذه الزائدات ومن رآهم يحبون الأشياء على أصلها استنسخ لهم من كتابه نسخة تامة ، وهذا هو السبب في اختلاف النسخ التي ظفر بها طابع الكتاب ـ قاله أستاذي الجزائري .

والغالب ان الأطباء ومهنتهم تقتضيهم النظر في أعضاء البدن كافة لا يتحرجون كسائر الشعراء من النظم في الأدب المكشوف تسلية لأنفسهم ولغيرهم في صناعة صعبة تحتاج الى مرح ودعابة وقد وقع لهم في عهد المدنية العربية من ذلك أشياء كثيرة قصد بها ادخال السرور على النفوس ولولا ان بعضهم يشمئزون من ذكر هذه المسائل ما توقفت عن ان أتقدم أول المؤلفين في إثبات ما قالوا ما دام أجدادنا لم يحجموا عن إنشادها وتدوينها أيام عزة الاسلام .

ومن حرية المؤلف انه نشر النسخة التي كتبها ابن حمويه المتصوف لعمه رشيد الدين علي بن خليفة بالباسه خرقة التصوف . ولعله قصد باثباتها في مصنفه لينعى على بعض أهل هذه الطريقة تحريفهم خصوصاً وقد ادعى ابن حمويه انه أخذها عن والده عن جده وأنه أخذها عن الخضر عليه السلام والخضر عن رسول الله ﷺ ، والخضر كالعنقاء والمهدي ما جاء قط . وبنقله هذه النسخة فضح معتقداً واهياً بقي يجوز على عقول العامة قروناً .

لموفق الدين عدة كتب لم تصل الينا ووصل الينا طبقات الأطباء وهو بحق من الأمهات المعتبرة حفظت فيه مطالب مهمة جداً لولاه لضاعت على العلم العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الثعالبي

ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري

(٤٢٩)

هذه النسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل له ذلك لأنه كان فراء ونشأ في نيسابور وطاف البلاد والغالب انه من أصل عربي أخذ عن ابي بكر الخوارزمي وسماه بعضهم جاحظ نيسابور . قال ابن خلكان فيه انه كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه ، سار ذكره سير المثل وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب وتواليفه كثيرة . وأكبر كتبه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وفيه يقول ابن قلاقس :

أبيات أشعار اليتيمة أبكار أفكار قديمة

ماتوا وعاشت بعدهم فلذاك سميت اليتيمة

كان شاعراً عظيماً وكاتباً مجيداً يعرف ما يختار ويبدع وفي كل ما كتب أجاد وأبدع ونمّ عن ذوق ظريف في الشعر والنثر .

وما جود الثعالبي هذه الاجادة النادرة في تأليف اليتيمة إلا لأنه تصدى لتصنيفها والعمر في اقباله ثم تعاورها بالزيادة والنقص الى أوان نضجه واكتماله قال : «وحين أعرته على الأيام بصري وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة الا أحب في غدها ان يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة» والنسخة الأخيرة التي اعتمدها من اليتيمة تجمع «من بدائع أعيان الفضل ونجوم الأرض من أهل العصر ومن تقدمهم قليلاً وسبقهم يسيراً تتضمن من ظرفهم وملحهم لطائف أمتع من بواكير الرياحين والثمار وأطيب من فوح نسيم الأسحار بروائح الأنوار والأزهار ما لم تتضمنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النسخة السائرة الأولى والشرط في هذه الأخرى ايراد لبّ اللب وحبة القلب وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفصّ ، مع كلام في الاشارة الى النظائر والأحاسن والسرقات فتأخذ في طريق الاختصار ونبذ من أخبار المذكورين وغرر من فصوص فصول المترسلين يميل الى جانب الاقتصار » .

بدأ بشعراء الشام وفضلهم في البلاغة على غيرهم وقال ان السبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم ، فجمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . قال كانت أشعار الاسلاميين أرقى من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين ثم كانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ولانتهائها الى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى غايات الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ومن حدّ الشعر الى السحر فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم وابكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لاقسام البراعة ، وأوفرها نصيباً من كمال الصنعة ورونق الطلاوة .

بدأ اليتيمة بسيف الدولة والذين كانوا من شعرائه في الذروة ثم شعراء مصر والمغرب والموصل وشعراء بني بويه وكتابهم وشعراء البصرة والعراق وحده ثم بغداد وحدها واصبهان والجبل وفارس والاهواز وجرجان وطبرستان وخوارزم وخراسان ونيسابور وغيرهم من أهل البلاد التي نسي اسمها الا من كتب التاريخ وتقويم البلدان وكانت تقيم للآداب أسواقاً وتفضل على الأدباء والشعراء فتنضر أوراقه وتينع ثماره .

وكتابه الثاني فقه اللغة واسرار العربية وهو كتاب كاد يحيط باللغة قسمه أبواباً وضم كل معنى الى شكله وكل لفظ الى ما يماثله وجعله في متناول الخواص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والعوام والبنات والبنين وهو كتاب آخذ بناصية الكمال من أوله الى آخره، قدمه لأبي الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي وكان أقام عنده زمناً في ضيعته فيروزاباد من رستاق جوين وأمده بكتب من خزائنه حتى كتب هذا الكتاب الدال على اغراقه في النظام والتنسيق ما يكاد يكون فيه منقطع النظير.

وكتابه الثالث «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» ليس أقل من الثاني تنسيقاً وجمالاً وقد خرجه «في أحد وستين باباً ينطق كل منها بذكر ما يشتمل عليه أولاً ويفصح عن الاستشهاد وسياق المراد آخراً وما منها الا ما يتعلق من المثل بسبب، ويوفي من اللغة والشعر على طرف، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسهم، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسم، ويجيل في خصائص البلدان والأماكن قدحاً، ويجري في أعاجيب الأحاديث شوطاً» وكتابه هذا كله علم وبحث.

أما كتبه الصغيرة فكثيرة وكلها من الامتاع والاجادة في القمة منها أحاسن كلام النبي والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية وملوك الاسلام، ومنها كتاب من غاب عنه المطرب وأحسن ما سمعت والكنايات والتمثيل والمبهج وسحر البلاغة والاعجاز والايجاز والأمثال وبرد الأكباد في الاعداد وخاص الخاص وسر الأدب وغرر أخبار ملوك الفرس والفرائد والقلائد ونثر النظم وحل العقد والكناية والتعريض ولطائف المعارف واللطائف والظرائف والمؤنس الوحيد ومرآة المروآت ومكارم الأخلاق والمتنحل الى غير ذلك مما طبع له وكلة مجموعة فوائد وغرر في اللغة والتاريخ وتراجم الشعراء وأشعارهم والأدباء وأخبارهم والكتاب ومنثورهم «وشيء كثير جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم دلالة على كثرة اطلاعه» ينقل ما ينقل من الكتب المعتمدة المشهورة في عصره ويضم بعضه بنظام راق وعلم واسع يستفيد منه المتعلم والمتفكه حتى لتتألف من كتبه خزانة لطيفة. وكان بلقى المشهورين من الشعراء الممتازين ويستنشدهم شعرهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقتبس أحاديثهم ويأخذ من دواوينهم ومن هؤلاء الذين عاصرهم ضم كتابه طائفة عظيمة كانوا حلية زمانهم وسادة أبناء صناعتهم . ولم يتقزز من نقل أكثر الشعر بذاءة كشعر الواساني وابن الحجاج مثلاً فجاءت بتيمته مرآة العصر الذي كتبت فيه ومثالاً من أدب اهله ومن سبقهم الى الأرض .

وأعظم ما نفعه في تآليفه تنقله في حواضر الاسلام وأخذه من الكتب الموقوفة وكتب الخواص ما طاب له وكفاه ان نشأ في نيسابور وكانت في زمنه أعمر مدن الدنيا بالعلم والأدب كادت تفوق بغداد في القرن الثالث والرابع ونيسابور كاصفهان نبغ بها من كل صنف من أصناف الرجال المشتغلين بعقولهم ما يتعذر احصاؤه .

ومن شعره :

وسائلٍ عن دمعي السائل ... وحال لوني الكاسف الحائل
قلت له والأرض في ناظري ... أوسع منها كفة الحابل
بليت والله بمملوكة ... في مقلتيها ملكا بابل
فان لحاني عاذل في الهوى ... يوماً فما العاذل بالعادل

ومنه :

سقطت لحَيْني في فراشٍ لزمته ... اضم الى قلبي جناح مهيض
وما مرَض بي غير حبي وانما ... ادلس فيكم عاشقاً بمريض

وكتب الى ابي نصر سهل بن المرزبان ولقد لسعته عقرب على قدمه فلما وجدت وقتلت زال الوجع بهذه الأبيات :

يا عمدة الأمراء والوزراء ... يا عدة الأدباء والشعراء
يا غرة الزمن البهيم وناظر الـ ... ـكرم الصميم وواحد الفضلاء
أرأيت همة عقرب وثبت الى ... قدم بها تخطو الى العلياء
لما ارتقت باللسع أعظم مرتقى ... أحنت عليها رتبة العظماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان ذقت ضراء العقارب فابقين بعقارب الأصداغ في سراء
يا طيب لسعة عقرب دياقها ريق الحبيب بقهوة عذراء

وله : ثلاث قد مُنيت بهن اضحت لنار القلب مني كالأثافي
ديون أنقضت ظهري وجور من الأيام شاب له غدافي
وفقدان الكفاف وأي عيش لمن يُمنى بفقدان الكفاف

ومن شعره ما كتبه الى الأمير ابي الفضل الميكالي :

لك في المفاخر معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران بحر في البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
وترسّل الصابي يزين علوّه خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع
كالنَوْر او كالسحر او كالبدر او كالوشي في بُرد عليه موشع
شكراً فكم من فقرة لك كالغنى وافى الكريم بعيْد فقر مدقع
واذا تفتق نَوْر شعرك ناضراً فالحسن بين مرصع ومصرّع
ارجلت فرسان الكلام وروضت او راس البديع وانت امجد مبدع
ونقشت في فص الزمان بدائعاً تزري بآثار الربيع الممرع

ومن شعره :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوقي في تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقي قبلت عيني رسولي اذ رأتك بها

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net